وَإِذَا ٱلصُّحُفُ نُشِرَتۡ ﴿١١﴾

شرح الكلمات:

نُشرتْ: نشَر الخبر نشرًا: أذاعه. نشَر الثوب والكتاب: بَسَطَه خلافُ طَواه. ونَشَرَ الله الموتى: أحياهم. ونَشَرَ الموتى: حَيُوا. لازم ومتعدٍّ (الأقرب)

فقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ يعني ١- حين تُنشر الصحف، ٢- حين تُفتح الصحف، ٣- حين تُعاد الصحف الميتة إلى الحياة.

التفسير: كل هذه المعاني لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ قد تحققت في هذا العصر. المعنى الأول هو حين تُنشر الصحف وتُشاع، وقد تحققتْ هذه النبوءة باختراع المطابع لطبع الكتب والجرائد، وباختراع القطار الذي يوصل هذه المطبوعات إلى شتى أنحاء العالم. فهناك جرائد يُطبع منها حتى خمسة ملايين نسخة، كما تُطبع بعض الكتب بعشرة بل عشرين مليون نسخة. وهذا ما ورد في هذه الآية حيث تنبأت عن طبع الكتب والصُحف ونشرها في العالم على نطاق واسع.

والمعنى الثاني هو أن الصُحف ستُبسَط وتُفتَح، وقد تحققت هذه النبوءة أيضًا اليوم، حيث تُقرأ الكتب في هذا العصر بكثرة، كما أُنشئت مكتبات ضخمة يرتادها الناس لمطالعة الكتب والجرائد. كما يستعير أعضاؤها الكتب ليطالعوها في بيوتهم. باختصار قد فُتحت الكتب وبُسطت بدل أن تظل مغلقة، وصار للعلم رواجٌ في كل أنحاء العالم.

وقد تحققت هذه النبوءة من حيث إن علماء الآثار قد نقّبوا عن مكتبات ضخمة قديمة، فقد عثروا مثلا على مكتبة "نبوخذ نصر" المنقوشة على الحجارة Assyria & Babylon Uncovered, by: W.H. Boulton. (www.biblemagazine.com/magazine/vol-9/issue-3/assyria_babylon.html)

وهكذا قد أحيوا الصحف الميتة. فلا يزال علماء الآثار يُنقّبون عن الكتب المنسية المتروكة عَمليًا ويعرضونها على الناس. كما أنهم ينقبون عن آثار فرعون موسى عليه السلام ويدرسونها. كانت لغة المصريين القديمة التي تُسمى الهيروغرافية قد اندرست

تماما، ولكن علماء الآثار قد أنفذوا أعمارهم في فكّ رموزها وتمكنوا من قراءتها وأخبروا ما حدث مثلاً قبل موسى عليه السلام بألفي سنة وما حدث قبله بثلاثة آلاف سنة. (Encyclopeadia Britanica Vol. 8 : Hieroglyphic Writing)

باختصار، إن الصحف الميتة تُعاد إلى الحياة ثانية في هذا العصر وتتحقق النبوءة ﴿وَإِذَا الصُّحُفُ نُشِرَتْ﴾ جليًا.

وَإِذَا ٱلسَّمَآءُ كُشِطَتْ ﴿١٢﴾

شرح الكلمات:

كُشطت: كَشَطَ: رفَع شيئًا عن شيء قد غشّاه، ونحّاه. كشَط الجُلَّ عن الفرس والغطاءَ عن الشيء: قلَعه ونزَعه وكشَفه عنه. كشَط البعير: نزَع جلده، ولا يُقال سلَخ البعير (كما يقال سلخ الشاة)، لأن العرب لا تقول للبعير إلا كشطتُه أو جلّدتُه (الأقرب). فقوله تعالى ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ يعني: حين يُنـــزع جلد السماء أو يُزال غطاء السماء.

التفسير: قد يراد بالسماء العلوم السماوية الروحانية، فقوله تعالى ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ كُشِطَتْ﴾ يعني انكشاف العلوم السماوية في ذلك العصر، أي في ذلك العصر تكون العلوم الروحانية مغطاة مخفية تحت أنواع الحجب، فيبعث الله تعالى شخصًا من عنده، يكشف تلك العلوم الروحانية، ويُظهر أسرار القرآن المكنونة، ويبيّن غوامض علم الحديث.

والمعنى الثاني لكشط السماء هو نزع جلد السماء.. أي أن علم الفَلك والهيئة سوف يتطور بشكل هائل. في لغتنا أيضًا يقال: أنت تقشر الشعرة.. أي تتكلم بكلام عميقٍ دقيقٍ. وبالفعل نرى في هذا العصر أن علم الحياة والفَلك قد تطور تطورًا يفوق تصور الأولين. كما تطورت في هذه الفترة الوجيزة علوم خلق الكون وسعته وسير النجوم والأجرام الفلكية وغيرها تطورًا غير عادي لم يحدث في عشرات القرون الماضية. فما كان بوسع المهندسين وعلماء الرياضيات قبل قرن أو

قرن ونصف من الزمان ليقدّروا أن هذا التطور سيقع بهذه السرعة. في الماضي كان عندهم منظار لا يتعدى قُطره قدمًا ونصف قدم، أما اليوم فقد اخترعوا في أمريكا منظارا قُطره مئة قدم. وكلما كان المنظار أكبر قطرًا ازدادت كفاءته وقدرته. يقال إن تكلفة صنع هذا المنظار تبلغ مئة مليون دولار. وليس صعبًا تقدير عدد السنوات التي استغرقها صُنع هذا المنظار وعدد العلماء المتخصصين من شتى المجالات الذين جمعوهم من العالم. لقد تطوّرَ علم الفَلك باختراع هذا المنظار بشكل مدهش. يقدّر علماء الفَلك والهيئة المسافةَ بين نجم وآخر بسرعة الضوء. إنهم يقولون إن الضوء يقطع مسافة مئة ألف وستة وثمانين ألف ميل في ثانيةٍ واحدة. ولو ضربنا هذا العدد في ٦٠ عرفنا المسافة التي يقطعها الضوء في دقيقة واحدة، ثم ضربناه في ٦٠ عرفنا المسافة التي يقطعها الضوء في ساعة واحدة، ثم ضربناه في ٢٤ عرفنا المسافة التي يقطعها الضوء في يوم واحد، ثم ضربناه في ٣٦٠ عرفنا المسافة التي يقطعها الضوء في سنة واحدة. فلو أراد العلماء بيان المسافة بين نجم وآخر، فلا يقولون إنها كذا من الأميال، بل يقولون إن هذا النجم يبعد عن الآخر مثلاً بعشرين سنة ضوئية أو ألف سنة ضوئية.. أي لو ضربنا هذه السنوات في ما يوجد في السنة الضوئية من مسافة عرفنا المسافة بين النجمين.

باختصار، إن اختراع هذه المناظير قد أدى إلى تطور علم سير النجوم، كما أدى إلى ثورة كبيرة في العلوم السابقة عن سعة الكون. دَع العصور السابقة جانبًا، فحتى ما قبل الحرب العالمية السابقة كان العلماء يظنون أن سعة الكون هي ألفان من السنين الضوئية، ولكن عند نهاية الحرب أعلنوا أن سعته اثنا عشر ألف سنة ضوئية. أما اليوم فيقولون إنهم عاجزون عن تقدير سعته كليةً. وما يبيّنونه على وجه التقدير هو ستة وثلاثون ألف أو أربعون ألف سنة ضوئية. أما الآن وأنا أراجع هذه الملاحظات التفسيرية فقد أعلنوا أنهم قد اكتشفوا نجومًا تقع أبعدَ من هذه المسافة أيضًا.

ثم إنهم نتيجة الحسابات الجديدة قد تقدموا في بحوثهم حتى ادعوا أنهم قد اكتشفوا مركز الكون كله الذي تبدو فيه هذه الأجرام من شمس وقمر ونجوم كذرة صغيرة.

يقولون هناك عالَم فوق هذا العالم، ثم عالم ثالث، فرابع وهكذا دواليك، وفي الأخير هناك مركز عظيم هائل لهذا الكون تدور حوله كل هذه الكواكب والنجوم والشمس والقمر وغيرها. وقد غرَّهم بحثهم هذا أن زعموا أنهم قد اكتشفوا سرّ الألوهية، إذ يزعمون أن هذا المركز هو الإله، ويتحكم في هذا الكون كله من ذلك المركز.

وكذلك قد تغيرت نظريتهم عن خلق الكون بشكل جذري. لقد اخترعوا أجهزة تساعدهم على تحليل الأضواء النابعة من النجوم المختلفة، فيعرفون بذلك المواد الموجودة فيها. ذلك لأن الضوء الصادر من أي نجم يحمل معه أطياف المعادن والمواد التي رُكّب منها ذلك النجم. في الماضي كان الناس يظنون أن كل الأضواء من نوع واحد، ولكن العلماء قد علموا الآن أن ضوء كل نجم مختلفٌ عن ضوء الآخر بسبب اختلاف أطيافه، فلو فُحص الضوء الصادر من البلاتينيوم عُلم أنه صادر من معدن البلاتينيوم، ولو فُحص الضوء النابع من الراديوم، عُلم أنه صادر من الراديوم. فبفحص الضوء وحده يخبرون عن معدنه ومادته. ونتيجة لهذا التقدم العلمي قام العلماء بتحليل ضوء الشمس وأخبروا عن العناصر الموجودة فيها، وقاموا بتحليل ضوء المريخ وأخبروا عما يوجد فيه من عناصر ومعادن. باختصار لقد وقعت تطورات ثورية مذهلة في مجال علم الفَلك.

ثم هناك اكتشاف آخر يشهد على صدق الإسلام. كانت نظرية "دارون" هي السائدة في أوروبا كلها في الماضي، لكنهم قالوا الآن إن عمر الدنيا ٤٨ ألف سنة، وأن الشمس كلما اقتربت من مركزها ازدادت حرارةً، وعند انتهاء ٤٨ ألف سنة ستشتد حرارتها جدًا حتى تذيب كل الكواكب التي تدور حولها بما فيها الأرض.

وهذا نفس ما ورد في الحديث أن الشمس ستقترب من الأرض جدًا عند يوم القيامة حتى تدمر حرارتها الأرض.✪

باختصار، لقد نُزع جلد السماء نتيجة الثورة التي حصلت في علم الهيئة والفَلك، حيث تطور هذا العلم تطورًا هائلا غير مسبوق.

والمعنى الثالث من كشط السماء كشط علومها.. أي أن الناس سينـــزعون جلد الدين، بمعنى أنهم سيفحصونه فحصًا كأنما ينـــزعون جلده. وبالفعل ترى أنهم قد قاموا في هذا العصر ببحوث دينية غير مسبوقة. كما قام أتباع كل دين بتحليل دينهم إلى أبعد الحدود. خُذوا مثلا التوراة؛ فإن العلماء المسيحيين أنفسهم قد فحصوها فحصًا كأنما نزعوا جلدها، فأثبتوا مثلاً أن القول الفلاني ليس من كلام موسى عليه السلام بل هو من كلام هارون عليه السلام، وأن الكلمة الفلانية من اللغة الفلانية، وأن الناس المعاصرين لموسى لم يكونوا يتكلمون بتلك اللغة، فثبت أن تلك الكلمة قد أضيفت إلى التوراة فيما بعد. لقد قاموا بتحليلها بحيث قد بيَّنوا حقيقة كل كلمة فيها. أما كتاب "الفيدا" الهندوسي فإن العلماء الهندوس أنفسهم قد قاموا ببحوث كبيرة حوله، وأثبتوا أن كيت وكيت من اللغات قد أُدخلت فيه، وأن تلك اللغات كانت شائعة في كذا وكذا من الفترات الزمنية. كما قاموا بتحليلات مذهلة عن تاريخ "الفيدا" وترتيبه وكأنما نزعوا جلده. وإذا كان ثمة كتاب نجا من الموت نتيجة هذا الكشط والشق فإنما هو القرآن الكريم وحده. كانت هناك نبوءة قرآنية أن علوم السماء سوف يتم كشطها ونزع جلودها وكشف أسرارها، لذلك فقد جعل الله تعالى بحكمته الكاملة شقَّ الصحف الأخرى وفحصها في أيدي الأوروبيين، أما القرآن الكريم فقد فوّض الله تعالى مهمة كشف غوامضه وبيان أسراره في هذا العصر إلى المسيح الموعود عليه السلام. لقد كانت نبوءة ﴿وَإِذَا السَّمَاءُ

✪ نص الحديث: حَدَّثَنَا الْمِقْدَادُ صَاحِبُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ: إِذَا كَانَ يَوْمُ الْقِيَامَةِ أُدْنِيَت الشَّمْسُ مِن الْعِبَادِ حَتَّى تَكُونَ قِيدَ مِيلٍ أَوْ اثْنَيْنِ... فَتَصْهَرُهُمْ الشَّمْسُ." (الترمذي، كتاب صفة القيامة)

كُشِطَتْ﴾ ستنطبق على الصحف كلها، ولكن الله تعالى لم يُرِدْ تكريم الصحف الأخرى، فجعل أمرها في أيدي هؤلاء الجزّارين ليقوموا بشقّها وسلخها، أما القرآن الكريم فأراد الله تعظيمه، فلم يجعله تعالى في أيدي هؤلاء الأغيار، بل جعله في يد أحد عباده المصطَفين ليكشف غموضه ويبين أسراره للعالم.

وَإِذَا ٱلْجَحِيمُ سُعِّرَتْ ﴿١٣﴾

شرح الكلمات:

سُعّرتْ: سعّر النارَ والحربَ: أوقدَهما وأشعلَهما وهيَّجهما. (الأقرب)

التفسير: من معاني الجحيم "النار". وتسعير النار إشارة إلى شدتها. ومن معاني تسعير النار كثرة أهل النار لكثرة ارتكاب الذنوب في ذلك الزمن؛ ذلك لأن نزول الضيف في بيت يستلزم إشعال النار فيه إعدادًا لطعامه وضيافته، وحيث إن جهنم دار ضيافة لأهلها فإنهم حين يدخلون فيها بكثرة، فلا بد من أن تشعل فيها النار لضيافتهم.

ومن معاني قوله تعالى ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾ أن الله تعالى سيبعث نبيًا من عنده في ذلك الزمن، فيشتدّ غضب الله على الناس لمعارضتهم إياه، وذلك لقوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾(الإسراء:١٦).. أي أننا لا نعذّب الناس حتى نتم الحجة عليهم ببعثة رسول إليهم. فهذه الآية إشارة لطيفة إلى بعثة مأمور من عند الله في ذلك الزمن، لأن بعثة المأمور الرباني إذا كانت تفتح أبواب الرحمة للمؤمنين، فإنها تفتح أبواب العذاب للكافرين أيضًا.

وَإِذَا ٱلْجَنَّةُ أُزْلِفَتْ ﴿١٤﴾

شرح الكلمات:

أُزلفتْ: أزلفَه: قرَّبه. (الأقرب)

التفسير: تذكر هذه الآية نتيجة طبيعية لقوله تعالى ﴿وَإِذَا الْجَحِيمُ سُعِّرَتْ﴾، ذلك أن الجنة تُقرَّب من الناس عند كثرة الذنوب والغفلة عن الله تعالى، فيدخلون في الجنة بجهود قليلة وتضحيات يسيرة. إن دخول الجنة لا يكون سهلا في الزمن الذي تكثر فيه الخيرات كما يكون في الزمن الذي ينتشر فيه الإلحاد واللادينية، لأن المرء يفوز برضا الله عندها بقليل من التوجه إليه تعالى.

ومن معاني هذه الآية أن التضحيات التي تُقدَّم في ذلك العصر لدخول الجنة ستكون أخفَّ وأسهلَ نسبيا، حيث يؤجَّل الجهاد القتالي عندها، فلا يطالَب الناس بالتضحية بنفوسهم بل من خلال التضحية بأموالهم أو أوقاتهم أو مشاعرهم وأحاسيسهم يدخلون الجنة. كان المؤمنون في العهد الأول للإسلام يُعلَّمون أن الجنة تحت ظلال السيوف، أما اليوم فقد أُجِّلَ الجهاد بالسيف بحكمة من الله، فلا يعاني المؤمنون تلك المشاقّ التي كانوا يتكبدونها في الماضي، بل يمكن أن ينال المرء الجنة بالتضحية بالمال بدون الجهاد بالسيف.

ومن مفاهيم هذه الآية أن دخول الجنة يصبح أسهل نسبيًّا للذين يبايعون على يد المأمور الرباني بالمقارنة مع الذين لم يدركوا زمن إمامهم الرباني. فمثلاً إن النور الذي لم يكن يحظى به الناس قبل قرن من الزمان إلا ببقائهم طوال العمر في صحبة العلماء الربانيين يتولد في قلوبنا الآن بسماع بعض المعارف التي بيَّنها المسيح الموعود عليه السلام. ثم متى تيّسرت لهم رؤية هذه الآيات والمعجزات التي رأيناها على يده عليه السلام والتي رأينا بها وجه الله تعالى؟! ثم متى تيسرتْ لهم الإلهامات المتجددة التي تزيدنا اليوم إيمانًا على إيمان؟ فثبت أن دخول الجنة أصبح أسهل لنا من السابقين نتيجة بعثة المأمور الرباني في هذا العصر وبيعتنا على يده. وهذه هي علامة زمن المأمور الرباني، حيث تُقرَّب الجنة من الناس في وقته.

عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّآ أَحْضَرَتْ ﴿١٤﴾

التفسير: يخبر الله تعالى هنا أن قدره الخاص سيظهر في تلك الأيام وستظهر نتائج أعمال الناس بشكل خاص.. أي أنه في الزمن العادي يُحاسَب الناس على الصعيد الفردي، أما في زمن الأنبياء فيحاسَبون على صعيد الأمة، كما هو ظاهر من قوله تعالى ﴿وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّى نَبْعَثَ رَسُولاً﴾. والمحاسبة على صعيد الأمة تكون عسيرة جدا، لأن المحاسبة الفردية لا تكون بادية للجميع، إذ تتم مع الفرد على انفراد، أما المحاسبة على صعيد الأمة فيراها الجميع، إذ تتعلق بالأمة كلها. وهذه المحاسبة على صعيد الأمة قد أخذت في الظهور الآن من خلال الزلازل والحروب التي تقع بكثرة. يخبر الله تعالى في القرآن أن الأرض ستُزلزَل زلزالا شديدا حتى يقول الإنسان: ﴿ما لها﴾؟ (الزلزلة:٤).. أي ماذا حصل بهذه الأرض إذ يحلّ بها عذاب بعد عذاب ودمار بعد دمار؟ وبالفعل نجد إحساسًا عاما عند الناس أن هذه الآفات ليست إلا عذابًا سلَّطه الله على أهل الأرض، وهو الذي يُحدِث ثورة في العالم من خلال هذه الزلازل والحروب والأوبئة.

إذًا، فهذه الآية نبوءة بأنه سيأتي يوم تظهر فيه نتائج هذه الحروب والزلازل على صعيد الأمم، وسيظهر قدر الله تعالى في الدنيا ظهورا خاصا.

فَلَآ أُقْسِمُ بِٱلْخُنَّسِ ﴿١٥﴾ ٱلْجَوَارِ ٱلْكُنَّسِ ﴿١٦﴾

شرح الكلمات:

الخُنّس: جمعُ الخانسِ، وخنَس عنه: تأخّرَ وانقبضَ. وخنَس بين أصحابه: استخفى. وخنَس القولَ: أساءه. (الأقرب)

الجَوارِ: جمعُ الجاريةِ، وهي مؤنث الجاري.. أي الساري. والجاريةُ: الصبيّةُ؛ الأَمَةُ (المنجد). والجاريةُ: الشمسُ؛ السفينةُ؛ الحيّةُ (الأقرب). ويمكن أن تعني الجواري أناسا يمضون قُدُمًا.

الكُنّس: جمعُ الكانس وهو الظبي يدخل في كِناسه. (الأقرب)

التفسير: لقد قدم الله تعالى هنا كشهادة قومًا ذوي خصال ثلاث: ١- أنهم يمشون قُدمًا، ٢- أنهم ينحرفون ويتأخرون، ٣- أنهم يختفون. وهؤلاء القوم هم المسلمون في هذا العصر؛ إذ توجد فيهم هذه الخصال الثلاث المدمرة للأمم؛ وهي المضيّ قُدمًا بتهوُّر دون تفكير، والفرار عند الخطر، والجلوس في البيوت عاطلين. لقد بيّن الله تعالى من قبلُ في قوله ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَا أَحْضَرَتْ﴾ أن الإنسان سيرى نتائج أعماله حتمًا، أما الآن فذكر عيوب المسلمين في هذا العصر وهي أنهم سيسلكون مسلكا خاطئا، ويفرّون من المعركة خوفًا من الحضارة الغربية، وسيقدِّمون الإسلام بقشره دون لبّه تاركين العقل والمنطق، ومن ناحية أخرى لن توجد فيهم تضحية روحانية، بل يختفون قابعين في بيوتهم، ولن يتصدّوا لعدوهم الروحاني غير مبالين بما يحلّ بالإسلام من مصائب، ولذلك سيضعف الإسلام ويغلب أعداؤه.

ومن تدبرَ في حالة المسلمين في هذا العصر قليلا وجدهم هكذا تمامًا، ووجد هذه السورة تتحدث عن هذا العصر. فمعظم المسلمين قد أصبحوا من الُخنَّس، أعني منحرفين عن الصراط المستقيم بعيدين عن الحق، بمعنى أنهم أخذوا يعملون كما يعمل أهل الكفر، ومع ذلك يعتبرون هذا الأسلوب خدمة للأمة والوطن. لقد اتخذوا منهج الأوروبيين وسلوكهم وفلسفتهم واعتبروه عين الصواب، واعتبروا خلافه خسرانًا وتبابا. إنهم مسلمون بالاسم فقط، وقد اعتبروا اتّباع الحضارة الغربية إسلامًا. لقد ساءت الأحوال الآن لدرجة أن ترى شخصين يعيشان بأسلوب واحد ومع ذلك يسمى أحدهما مسيحيا والآخر مسلما، والباحث المحقق يقول في ذهول: كيف يمكن أن تسمى طريقة العيش الواحدة مسيحيةً وإسلامية معًا؟ وبالرغم من أنهم قد انحرفوا عن الإسلام في الواقع إلا أنهم سائرون على طريقه في الظاهر، ويُسمَّوْن مسلمين.. فكأنهم يتركون الإسلام من جهة، ويُظهرون رغبتهم فيه من جهة أخرى، ويزعمون أنهم يتّبعون منهجه. والحق أن حماسهم هذا ليس إلا تقليدًا فارغًا وثرثرة لسان، إذ يدّعون الإسلام بلسانهم، ويختفون في بيوتهم عند العمل دون أن يقدموا في سبيل الإسلام أي تضحية. لقد تركوا تعاليم الإسلام، ثم يدّعون أنهم

يتّبعونه. يرفعون الهتافات عاليةً لتأييد الإسلام وعند العمل يهربون من تقديم التضحية الحقيقية. ولو أنهم ضحّوا تضحية صادقة كما يفعل الأوروبيون رغم ما أصابهم من انحطاط وضعف، لاستردّوا من مجدهم الدنيوي الغابر كثيرا. ولكنهم يصبحون من الكنّس عند العمل الحقيقي مختفين في مغاراتهم، فيسلب العدو متاع الإسلام بحرية. دَعْ أوروبا جانبًا، فإن المسلمين رغم كثرتهم لا يقفون بشجاعة في وجه بعض شعوب الهند الضعيفة الحقيرة رغم قلّتها، وليس ذلك إلا لخوفهم من المثابرة على التضحية الدائمة الثابتة، فيفرّون مدبرين عند أول هتاف العدو، وفي كل مرة تكسب المعركة شعوبٌ هي أقل منهم قوة ولكنها أكثر منهم تنظيمًا.

وَٱلَّيۡلِ إِذَا عَسۡعَسَ ﴿١٨﴾ وَٱلصُّبۡحِ إِذَا تَنَفَّسَ ﴿١٩﴾

شرح الكلمات:

عسعسَ: عسعسَ الليلُ: مضى، وأظلمَ. (الأقرب)

تنفّسَ: أدخلَ النفَسَ إلى رئته. وتنفّسَ الصبحُ: تبلّجَ (الأقرب).. أي أشرقَ وأنارَ.

التفسير: لقد رسم الله تعالى في الآيات السابقة حالة المسلمين التعيسة في هذا الزمن، التي توحي بأن لا مصير لهم إلا الهلاك، أما الآن فيُطمئن أهل الإسلام ويخبر أن هذه الظلمة لن تدوم، بل يشهد الله بالليل الذي قد ولّى واقترب من النهاية، كما يشهد بالصبح الذي قد تنفس.. أي أشرق وظهر. إن ذهاب الليل وانبلاج الصبح دليل على انقضاء فترة الانحطاط وبداية فترة جديدة من الازدهار، وهذا ما تشير إليه هذه الآيات. فالله تعالى يعلن أنه لن يسكت على فترة انحطاط الإسلام هذه، بل سيهيئ لإزالة ضعف الإسلام أسبابًا، فيطْلع نجم الصبح من عنده تعالى، أي سيُبعث مصلح الزمان وإمامه الذي يظهر ظهورَ نجم الصبح عند انتهاء كل ليلة. إذا ظهرت آثار النور –ولو باهتة– عند اشتداد الظلمة وقنوط الناس، فإن هذا المشهد يماثل إنسانا ميّتًا في الظاهر حيًّا في الحقيقة، فإذا رُشَّ في وجهه ماء باستمرار

تنفسَ تنفسًا ضعيفا بعد جهود استغرقت ساعة أو يزيد، فيقول الله تعالى ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.. أي سوف يشتدّ الظلام يومئذ حتى يقول كل إنسان: قد مات الإسلام ولم يبق فيه أثر للحياة؛ فبعضهم سيتركون الإسلام باعتباره ميتا، وبعضهم يأخذون في البكاء عليه، وبعضهم سيظلون في عملهم ويرشّون الماء على وجه الإسلام فيتنفس نفسا ضعيفا، فيقول الجميع ها قد عاد الإسلام للحياة. هذا ما يشير الله إليه بقوله ﴿وَالصُّبْحِ إِذَا تَنَفَّسَ﴾.. أي أننا نقدِّم الصبح كشهادة عندما يتنفّس بظهور بعض الناس.

كما سبق أن بيّنا أن قولهم "تنفسَ الصبح" يعني تبلَّجَ، أي أشرق وأنار، وهذا المفهوم كان بيانه بأساليب أخرى ممكنًا، ولكن الله تعالى قد اختار هنا لبيانه كلمات تشير إلى القنوط الذي سيسود الناس، وأخبر أن ازدهار الإسلام سيُعتبر ضربًا من المحال في ذلك الوقت، ولكن هذا الليل المظلم سيأتي في نهاية المطاف، فيتنفس الصبح بصعوبة، فترتفع همم المسلمين، فيوقنون في قلوبهم أن الإسلام سيغلب حتمًا، وأن خدامه سينتصرون يقينًا.

إِنَّهُۥ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ ﴿٢٠﴾ ذِى قُوَّةٍ عِندَ ذِى ٱلْعَرْشِ مَكِينٍ ﴿٢١﴾ مُّطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ ﴿٢٢﴾

شرح الكلمات:

مَكين: مَكُنَ فلان عند السلطان: عَظُمَ عنده وارتفع وصار ذا منـــزلة. (الأقرب)

التفسير: إن هذه الأمور التي فصّلَتها هذه الآيات من رُقيِّ الإسلام، ثم ضعفه، ثم غلبته ثانية في الزمن الأخير، عندما يخاطَب بها شخص لم يقع أمامه شيء منها بعدُ تنشأ في قلبه تساؤلات ثلاثة أوّلها: كيف يقال لنا أن دين الإسلام سيؤول إلى الضعف والانحطاط ونحن لا نرى أثرًا لرقيه في أي مكان ولا بقعة، ولا نرى الناسَ قد دخلوا فيه بكثرة بعدُ، فماذا تعني من الإخبار عن ضعفه؟

وثانيها: لو سُئل المسلمون الذين رأوا ازدهار الإسلام والحكومات الإسلامية: هل لكم من زوال، لقالوا كلا، مستحيل، فمن ذا الذي يقدر على كسر شوكة الإسلام؟ فمثلاً متى كان للأمويين والعباسيين أن يتصوروا أن النصارى الذين يعيشون تحت حكمهم سيصبحون غالبين عليهم في يوم من الأيام، وسينالون من القوة بحيث إنهم لن يبالوا بصوت المسلمين وإن صرخ جميعهم معًا. هذا يعني أن غلبة الإسلام كما بدت مستحيلةً عند القوم في بداية الإسلام، كذلك كان من المحال أن يصدِّقوا في أيام ازدهاره أنه سيصاب بالضعف والانحطاط.

وثالثها: لو أُصيبَ الإسلام بالضعف فعلاً كما هو الحال الآن، وكان ضعفه شديدا بحيث إننا مهما قلنا الآن للمسلمين إنه سيصبح غالبًا ثانيةً فلن يصدّقوا ذلك، ويقولون كيف يمكن أن يزدهر المسلمون بعد هذا الانحطاط الشديد؟ الواقع أن اليقين بغلبة الإسلام ثانية إنما يتولد في قلب المرء اليوم بتصديق المسيح الموعود عليه السلام، أما بدون تصديقه عليه السلام فلا سبيل لذلك، ومن أجل ذلك نجد أن المسلمين الآخرين كلما سعوا لغلبتهم تمنّوْا مصالحة المسيحيين أو تشكيل حكومة بالتعاون مع الهندوس، وليس ذلك إلا لأن من المحال أن يتصوروا أن المسيحية ستؤول غدًا إلى ما آل إليه الإسلام اليوم، وأن النصارى سيصبحون بلا حول ولا قوة أمامهم كما هو حالهم اليوم. إن هذا البرنامج هو برنامج جماعتنا فقط، لأننا رأينا آيات الله تتحقق أمام أعيننا، ولأننا قد آمنّا بإله حيّ قويّ.

باختصار، لم تكن أي من هذه الأمور أو المراحل لتخطر ببال الناس قبل ميعادها. عندما نزلت هذه السورة كان رقيّ الإسلام ضربًا من الخيال، ثم لما جاءت فترة ازدهاره كان تخيُّلُ انحطاطه محالاً. ثم لما أُصيب الإسلام بالضعف اليوم، قيل إن رقيّه من المستحيلات. وحيث إن كل نبوءة من هذه النبوءات الثلاث هي مما لا يمكن للناس أن يوقنوا به، فلذلك قال الله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.. أي ستكشف لكم الأيام كيف يتحقق ما يقول لكم رسولنا الكريم هذا. اليوم تنظرون إلى رسولنا بازدراء واحتقار، ولكننا نخبركم كنبوءة أولى أن الناس سيصدِّقون أن هذا الرسول رسول كريم. إنها نبوءة تتعلق بالمستقبل القريب، وإذا تحققت كان هناك أمل في

تحقق النبوءات الأخرى بعيدة المدى. إن رسولنا غير معزَّز في أعينكم، وتظنون أنه تحت رحمتكم، ولكنكم سترون عن قريب بأعينكم أنه رسول كريم، وإذا تحقق ذلك المحال في الظاهر، فلا بد أن تتحقق الأنباء الأخرى التي تظنونها مستحيلة الوقوع.

لقد اعترض البعض هنا قائلاً إن قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ يعني أن القرآن كلام بشر وليس كلام الله. هذا الاعتراض راجع إلى عدم فهم أساليب الكلام. الواقع أنه عندما يأتينا شخص بخبر نفحصه بطريقين: أوّلهما: نرى ما إذا كان ما يقوله صحيحًا لفظًا أم لا؟ وثانيهما: أننا لا نهتم بالكلمات، بل نهتم بفحوى الرسالة ونرى ما إذا كان قد أداها بشكل صحيح أم لا؟ وهذان أمران مختلفان، وبينهما بون شاسع. فمثلا أتاك شخص وأخبرك أن فلانًا قال له أنك أُعطيتَ وظيفةَ كذا. فقد تعرف سلفًا أنك قد مُنحت الوظيفة، ولكنك لا تعرف بالضبط كلمات القرار بهذا الشأن، فتسأله: أتعلم ما هي كلمات القرار بالضبط؟ فلو كان على علم بها أخبرك، وإلا اعتذر إليك. وقد لا تعرف عن هذا الخبر شيئا، فتقول لهذا الشخص: أصحيح ما تقوله؟ فلا تهتم في هذه الحالة بكلمات الخبر بقدر ما تهتم بصحة فحواه. فهاتان حالتان مختلفتان نواجههما دائمًا. والآن تعالوا نتدبّرْ في هذه الآيات لنعرف ما هي مطالبة العدو التي أُجيب عليها في قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾. والتدبر القليل يكشف لنا أن العدو لا يسأل هنا: آلله تعالى هو الذي قال ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ﴾ أو ﴿وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾؟ بل كان يسأل متى يتحقق هذا الخبر غيرَ مهتمٍ بالكلمات وقائلها. فالواقع أن قوله تعالى ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾ جاء تأكيدًا لفحوى ما قيل في هذه السورة، لا تأكيدًا لكلماتها. لا شك أن العدو يناقش كلمات الرسالة أحيانًا، ولكن عند الحديث عن الأنباء لا تناقَش كلماتها، وإنما يكون السؤال عن موعد تحقُّقها. ولم يكن الكافرون يعترضون هنا على كلمات هذا الخبر، أهي كلمات الله أم كلمات محمد، إنما اعتراضهم على فحوى الخبر، فرد الله عليهم بقوله ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾.. أي قد وصلتكم

هذه الرسالة عن طريق رسول معزَّز، والرسول المعزَّز لا يكذب أبدا، فكونوا على يقين بصحة فحوى رسالته، إذ سيتحقق حتمًا ما قيل لكم.

والملاحظ أن الله تعالى لم يقل هنا رسول أمين، بل قال ﴿رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾، ذلك لأنه تعالى قال ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾(الشعراء:١٠٨) في معرض الحديث عن ضبط كلمات الوحي وحفظها بنصّها، أما عند الحديث عن نقل فحوى الرسالة بشكل صحيح، فقال تعالى ﴿رسولٍ كريمٍ﴾، لأن الرسول إنما يستحق الإعزاز والتكريم إذا نقل الرسالة بشكل سليم، أما إذا أخطأ في تبليغ فحواها فلا إكرام له. فمثلاً لو أمر سيدٌ خادمَه أن يبلّغ فلانًا بحضوره غدًا في المكان الفلاني، فذهب وقال للمرسَل إليه: يقول سيدي إنه لن يستطيع الحضور، فلا شك أن مثل هذا الخادم سيسقط في عين سيده، فالرسول يستحق التكريم إذا نقل الرسالة بشكل سليم. والكافر لا يهتم بكلمات الرسالة بقدر ما يهتم بفحواها ومعناها، ولذلك من مهمات الرسول أن يبين للناس المفهوم الصحيح لكلمات الوحي، أما إذا لم يبيّنها فيُخاف أن يسيء الناس فهم الوحي. فالسؤال هنا ليس عن كلمات الوحي الأصلية، بل عن مفهومه الصحيح، ولذلك قال الله تعالى: إن رسولنا هذا كريم، وقد نقل لكم الرسالة بشكل سليم تمامًا، ولو لم يكن مؤهلاً لنقلها بشكل صحيح لما لقي هذا التكريم الخاص منّا. باختصار، ليس الحديث هنا عن كلمات القرآن وحدها، بل عن شرحها وبيانها أيضًا.

أذكر هنا أمرًا ذوقيًا، وهو أن المفسرين قالوا إن المراد من ﴿رسولٍ كريمٍ﴾ هو جبريل (روح المعاني، والكشاف). وقد ضعّف الله تعالى قولهم بطريق غريب يسرّ القلب. ذلك أن المسلمين لا يطلقون كلمة (رسول كريم) إلا على النبي ﷺ، فكلما قرأ مسلم كلمة (رسول كريم) انتقل ذهنه إلى النبي ﷺ فورًا، ولا يفهم منه إلا النبي ﷺ.

ثم يجب أن نعرف أن شرح الوحي ليس من مسؤولية جبريل، وإنما عليه نقل الوحي بكلماته الواضحة. لو كان الحديث هنا عن صحة كلمات الوحي فقط، لقال الله تعالى هنا ﴿رَسُولٌ أَمِينٌ﴾، لأن نقل الكلمات بنصّها وفصّها يدل على أمانة

الرسول، ولكن الله تعالى قد قال هنا ﴿رسولٍ كريمٍ﴾ للدلالة على الإكرام والإعزاز. والرسول إنما تظهر عزته وكرامته إذا نقل الرسالة للناس مع شرحها السليم. إذًا فالله تعالى قد قال هنا للكفار سترون أن هذا الرسول سيصبح معزَّزًا مكرَّمًا ذا فهم وحكمة، كما سترون أنه سينال القوة يومًا ما. أما اليوم فترونه ضعيفا، ولا ترون أيّ دليل على صدقه، ولكنا نخبركم أنه سينال قوة عظيمة. وهذا ما حدث بالضبط.

لقد أتى على النبي ﷺ يومٌ حاصره فيه الكافرون في بيته ليقتلوه، ثم أتى عليه ذلك اليوم الذي نال فيه القوة العظيمة بعد صلح الحديبية مباشرة، حتى بدأ ﷺ يبعث الرسائل إلى الملوك الكبار يدعوهم فيها إلى الإسلام. وكان هؤلاء الملوك يتحيرون من هذا الأمر جدا، إذ كانوا يقولون ما هذا الانقلاب العجيب الذي حصل ونحن ننظر؟! فهل يعقل أن إنسانا عربيًّا أميًّا لا قيمة له في أعين الناس قد نال هذه القوة حتى بدأ يخاطبنا ويدعونا إلى الدخول في الإسلام؟ إن الأوضاع قد تغيرت اليوم كثيرا، حيث يتلقى الملوك رسائل الناس فيقرءونها ثم يرمونها في سلة المهملات غيرَ مبالين بمعرفة صاحبها، أما في الماضي فكان الأمر على عكس ذلك؛ إذ كان هناك ملوك جبابرة عظام، وما كان للإنسان العادي أن يجرؤ على مراسلتهم. لذلك نجد أن كسرى لما قرأ رسالة النبي ﷺ استشاط غضبًا واعتبرها إساءة له وعبّر عن غيظه الشديد (الطبري، الجزء الثالث: ذكرُ خروج رسل رسول الله ﷺ إلى الملوك). اليوم لا نستطيع تقدير خطورة مراسلة أولئك الملوك، لأن الزمن قد تغير، إذ يمكن لكل واحد مراسلةَ الملوك إذا شاء، بل حتى قبل هذه الحرب (العالمية الثانية) كان من السهل أن يراسل أي شخص هتلر، أو موسوليني أو روزفلت. كانت مراسلة شخص عادي للملوك في ذلك العصر بمثابة إلقاء النفس في التهلكة. الواقع أن الإنسان يغتر كثيرًا لعدم معرفة حقيقة الأمور، فمثلا: كان المولوي محمد حسين البطالوي يتفاخر بأنه يراسل الحاكم الإنجليزي للهند، فيرد على رسائله، فكان المسيح الموعود عليه السلام يقول تعليقًا على ذلك: أي مفخرة في ذلك؟ لأنه لو بعث أحدُ كنّاسي الطرق رسالة إلى هذا الحاكم لرد على رسالته. إن الإنجليز يخاطِبون

الجميع في رسائلهم بكلمات محدّدة مثل (DEAR SIR) أي سيدي العزيز، فيظن القارئ أن الحاكم يعظّمه، مع أنها كلمات عادية يستخدمونها لكل من هب ودب، ولكن المولوي محمد حسين يتفاخر أن حاكم الهند يخاطبه في رسالته بالسيد العزيز!! والحق أنه ليس عند الإنجليز كلمات أخرى للخطاب. فلو راسلوا أحد الكنّاسين لخاطبوه: أيها السيد العزيز، ولو راسلوا حاكم محافظة لخاطبوه: أيها السيد العزيز، ولكن الناس يغترّون بها ويتفاخرون. رأيت ذات مرة أحد الإخوة الأحمديين في نقاش مع صاحبه وهو يقول له: هل سمعتَني أكذبُ ولو مرة؟ وكان يستدل على صدقه بقول الله تعالى ﴿فَقَدْ لَبِثْتُ فِيكُمْ عُمُرًا مِنْ قَبْلِهِ أَفَلاَ تَعْقِلُونَ﴾ (يونس:١٧). مع أنه لا يحق لكل من هب ودب الاستدلال بهذه الآية على كونه صادق القول، إنما يصحّ ذلك لمن له مكانة بارزة بين القوم وأعلن دعواه. إن هذه الآية دليل على صدق من صار محطّ أنظار الناس، ولكنها لا تنفع غيره. وبالمثل إذا أجاب اليوم أحد من كبار القوم على رسالة إليك، فليس فيه أي مفخرة لك، ومن أجل ذلك تأخذ بعض المسلمين حيرةٌ حين يقرأون عن مراسلة النبي ﷺ الملوكَ ويقولون: ما الغرابة في ذلك؟ إنهم لا يدرون أنه كان في مراسلة الملوك في ذلك العصر خطر كبير، إذ كانوا في بعض الأحيان يقتلون صاحب الرسالة سخطًا. أما اليوم فقد تغير الوضع تماما، إذ لم تعُدْ مراسلة الملك – ولو كل يوم – ذات أهمية.

ثم علينا أن نرى كيف كان ردّ فعل الملوك على رسائل النبي ﷺ، فهل اعتبروها أمرًا عاديًّا، أم كان لها وقع ملفت للنظر؟ يتضح من التاريخ أن رسالة النبي ﷺ لما وصلت قيصر دعا أبا سفيان ووجّه إليه عدة أسئلة، ولما انتهى حواره مع أبي سفيان قال هذا لأصحابه بصورة عفوية: لقد أمِرَ أمرُ ابنِ أبي كَبْشَةَ! إنه يخافه ملكُ بني الأصفر (البخاري، كتاب بدء الوحي، باب كيف كان بدء الوحي).. أي أن أمر محمد قد تفاقم، حتى إن ملك الروم يخافه. كذلك إن قول النبي ﷺ لقيصرَ – وقد جاء بجيوشه إلى الشام –: "أَسلِمْ، وإلا فإن عليك إثمَ الأَريسيين"، يدل أنه ﷺ قد بعث هذه الرسالة إليه رغم علمه أنه قد يزحف بجيشه إلى المسلمين، أو يأمر بقتله

ﷺ. مع ذلك لم يأبه ﷺ بذلك مطلقًا، وقال لهؤلاء الملوك العظام علنًا: إن أسلمتم فأنفسكم تنفعون، وإن كفرتم بي فسوف تمثُلون أمام الله مجرمين.

إذًا يقول الله تعالى هنا للكافرين: إنكم تنظرون اليوم إلى محمد باحتقار، وسترون عن قريب كيف ينال القوة والعظمة الخارقتين حتى إن الملوك الجبابرة يرتعدون خوفًا منه.

أما قوله تعالى ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾، فقد بيّن فيه ميزة أخرى، ذلك أن الناس إذا نالوا القوة أهملوا أحكام الدين عادة، وإذا نالوا القوة غصبوا حقوق الضعفاء، ولكنه ﷺ لن يكون هكذا، بل هو عند ذي العرش مكين رغم قوته.

الواقع أن أهل مكة كانت تنتابهم شبهات كالتي تنتاب أهل أوروبا اليوم بأن محمدا إنما يريد الملك والحكم، ولذلك نجدهم قالوا له ﷺ مرة: إذا كنت تريد المال جمعنا لك من الثروة ما لا يملكه أحد من العرب، وإذا كنت تريد السيادة اخترناك ملكًا علينا، بشرط أن لا تتعرض لآلهتنا (السيرة لابن هشام، الجزء الأول: قولُ عتبة بن ربيعة في أمر رسول الله ﷺ). كانوا يظنون أنه ﷺ لا يُدلي بهذه الأنباء إلا حبًّا للحكم والسيادة، فيرد الله عليهم: لا شك أنه سيصبح ملِكًا، ولكنه لن يحكم بما يحلو له، بل سيزيده مُلكه تقوى وورعًا. ومثل هذا الإنسان لا يقال عنه أنه كان يرغب في السيادة، بل يقال أن الله تعالى هو الذي نصَّبه في هذا المقام. باختصار، يخبر الله تعالى هنا أننا عندما نعطي الملك لمحمد رسول الله، فسيكون متواضعا للناس عطوفا بالفقراء خادما لخلق الله ومؤديا حقوقَ الله وحقوق العباد. وكأنه تعالى يقول إن المُلك سيزيده ﷺ صلاةً وصومًا وصدقةً وحجًا وغيرها من الصالحات. فأضاف الله تعالى ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ إلى قوله ﴿ذِي قُوَّةٍ﴾ لبيان هذا الأمر الهام. ذلك لأن القوة فيها جانب خير وجانب شر، وجانب الخير أن ذا القوة يصبح غالبا على الآخرين، وجانب الشر فيه أنه إذا نال القدرة تجاسر على هضم حقوق الآخرين، ولكن الله تعالى يخبر الكافرين هنا أنكم لن تروْا في رسولنا جانب الشر. فلن تجعله قوته مغرورا، بل ستجعله عند ذي العرش مكينا. إن ملكه سيزيده خيرًا، وبالتالي يزداد قربًا من الله تعالى. إن تقدُّمه في الدين والورع والتقوى وأدائه لحقوق الناس..

سيكون دليلا أن مُلكه ليس بمُلكٍ مادي، وأن حُكمه ليس مما يبعده عن دين الله تعالى، بل يزيده تقوى وقداسة وعرفانا.

ثم يقول الله تعالى ﴿مُطَاعٍ ثَمَّ أَمِينٍ﴾. وهنا أيضا ذكر أمريْن مختلفيْن: فقوله تعالى ﴿مُطاعٍ﴾ يدلّ أن كل الناس سيضطرون للإذعان له، غير أنه سيكون مطاعًا أمينا. ذلك أن من أصبح مُطاعًا يصاب -أحيانًا- بالكبر والزهو، ظنًّا منه أنه قادر على أن يفعل ما يشاء، وليس بوسع أحد أن يفتح فاه ضدّه أو ضد قراراته، ولكن الله يبين هنا أنه حين يضع رقاب الناس وشرفهم ومالهم في يد هذا الرسول فسيرون أنه سيؤدي لكل ذي حق حقه بأمانة. فهو بأداء حقوق الله تعالى كاملة سيكون مصداقا لقوله تعالى ﴿عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ﴾ وبأداء حقوق العباد يكون أمينا.

في هذه الكلمات الأربع قد رسم الله تعالى أخلاق الحاكم المثالي بما لا نظير له حيث أخبر أن هذا الرسول سيصبح ملِكًا، ولكنه يكون خاضعا لملكوت الله. إنه سيصير حاكما على الناس، ولكنه سيؤدي حقوق الجميع بكامل إنصاف.. أي أنه ﷺ سيكون مطيعا لله تعالى حين ينال المقدرة، ويكون مشفقا على خلق الله عندما يكون العباد تحت رحمته. باختصار، إن كلمات: كريم، ذي قوة، عند ذي العرش، مكين، مطاع، أمين.. كلها صفات لرسول الله ﷺ.

وهناك مفهوم آخر لهذه الآيات، وهو أن النبي ﷺ نال من العز ما لم يتيسر لغيره من ملوك الدنيا، وأصبح ذا قوة بحيث أطاح بعروش قيصر وكسرى. كما كان عند ذي العرش مكينا من حيث إن كل من أراد إهانته قد أهين ولا يزال يُهان حتى اليوم. ثم إنه مطاع من حيث إنه عندما أُطيحَ بعروش الملوك الآخرين كلهم قد حمى الله عرشه مرة أخرى ببعثة مأمور من عنده تعالى في هذا الزمن. ثم إنه أمين من حيث إن كلام الله الذي كُلِّفَ ﷺ بتبليغه للناس لا يزال محفوظا بنصّه وفصّه حتى اليوم، كما لا يزال يهيئ الله الأسباب لحفظه روحانيا. وهذا دليل عظيم على قوته ﷺ القدسية، وإلا فكيف حصل هذا كله؟

وَمَا صَاحِبُكُم بِمَجْنُونٍ ﴿٢٢﴾

التفسير: عند سماع مثل هذه الأنباء يرمي الناس صاحبها بالجنون، لذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾ بعد ذكر أخلاق النبي ﷺ.. أي لا تظنوا أنه مجنون، إذ إنه ليس غريبا عنكم، بل هو صاحبُكم الذي عاش بينكم، وقد شهدتم عظيم صلاحه ورجاحة عقله وإصابة رأيه، فكيف تعدّونه مجنونا؟ فإن المرء يصاب بالجنون إما لصدمة فجائية أو بمرض، ولكن رسولنا قد عاش بينكم وتعرفونه جيدًا وتعلمون أنه لم يُصب بأي صدمة ولا مرض، فكيف ترمونه بالجنون؟

من كمال إعجاز القرآن الكريم أنه يسوق أدلة صدقه في كلمة واحدة أحيانا، وهنا أيضا قد دحض تهمة الجنون بكلمة واحدة وجيزة: ﴿صَاحِبُكُمْ﴾، حيث نبّه الكافرين بأن محمدا كان صاحبكم، أي كنتم تعتبرونه صديقا ومستشارا وأمينا، فكيف أصيب بالجنون فجأة؟ وكيف يحق لكم اتهامه بالجنون بعد دعواه؟ وكيف تغير رأيكم فجأة وقد كنتم تعتبرونه سيدًا لكم من قبل، معترفين بزعامته ورجاحة عقله وزيادة فراسته؟

وَلَقَدْ رَءَاهُ بِٱلْأُفُقِ ٱلْمُبِينِ ﴿٢٣﴾ وَمَا هُوَ عَلَى ٱلْغَيْبِ بِضَنِينٍ ﴿٢٤﴾

شرح الكلمات:

الأفق: الأُفُق والأُفْق: جمعُ الآفاق، وهي النواحي (الأقرب). والأفُق المبين ناحية المشرق لأن الشمس تطلع منها.✪

وما هو على الغيب بضنين: أي ما هو عليه ببخيل. (المفردات)

التفسير: بعد الرد على تهمة الجنون بيّن الله هنا أن عهد نبوة محمد رسول الله ممتد لفترة طويلة، فالحريّ به أن يدلي بالأنباء المتعلقة بهذه الفترة الطويلة. إنه ملزَم بسبب

✪ ورد في تفسير "فتح القدير" للشوكاني: بالأفق المبين، أي: بمطلع الشمس من قِبل المشرق، لأن هذا الأفق إذا كانت الشمس تطلع منه فهو مبين، لأن من جهته تُرَى الأشياء." (المترجم)

دعواه بإلقاء الضوء على أمور ستقع زمن بعثته ولكنكم تستبعدونها باعتبارها خلاف العقل. إن ذلك الزمن هو كالغيب لكم، ولكنه بمنـــزلة الظاهر المكشوف بالنسبة له، وهو بمثابة الأُفق المبين لسمائه، فيراه عيانا، واعلموا أن الأخبار التي يتحدث عنها تتعلق بالمشرق. ويستفاد معنى المشرق من حيث إن الأُفق يطلق على كل جهة بعيدة تترآى فيها السماء والأرض كأنهما تلتقيان، ولكن ليس كل أفق مبينًا أي أفقًا يكشف الأشياء ويُظهرها، إنما الأفق المبين جهةُ المشرق التي تطلع منها الشمس وتبدّد الظلمة. فعبارة (الأفق المبين) ليست إشارة إلى الزمن البعيد فحسب، بل تخبر أيضًا أن ظهور هذه الأنباء سيكون من قبل الشرق.

ثم يقول الله تعالى للكافرين: لا شك أن الأخبار التي يدلي بها رسولنا أمامكم تبدو غريبة لكم، ومع ذلك لا يحق لكم أن تتهموه بالجنون، لأنه ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.. أي أنه ليس ببخيل عن الغيب، بمعنى أنه لم يخبركم بخبر واحد عن الغيب حتى تتهموه بالجنون، بل قد أدلى أمامكم بكثير من الأنباء الهامة، وقد تحقق العديد منها. لو أن محمدًا اكتفى بقوله آمنوا بي لأن هذا الأمر سيقع بعد ثلاثة عشر قرنًا، لَحُقَّ لكم أن تتهموه بالجنون، ولكنكم لا تستطيعون ذلك الآن، لأنه ليس بخيلا بأنباء الغيب. إنه ليس أول نبأ أخبركم به، بل قد أدلى بكثير من أنباء الغيب التي قد تحققت، فيمكن أن تعرفوا قياسًا عليها أن هذه النبوءة أيضًا ستتحقق في يوم من الأيام، ولا يحق لكم اتهامه بالجنون.

إننا، نحن المسلمين الأحمديين، حين نجادل المدعين الكاذبين الذين خرجوا في هذا العصر ونقول لهم: ما هي أنباؤكم التي تحققت إلى الآن، يقولون: ألا تؤمنون بنبوءة مؤسس جماعتكم بأن جماعته ستصبح غالبة بعد ثلاثة قرون؟ فما دمتم تؤمنون بنبوءة ستتحقق بعد ثلاثة قرون، فلماذا لا تصدّقون ما نتنبأ به؟ فنرد على هؤلاء: لو كانت هذه النبوءة الوحيدة لمؤسس الجماعة فلا شك أنه ليس في ذلك أي دليل قطعي على صدقه، ولكن الدليل على صدقه عليه السلام أنه قد تنبأ بكثير من النبوءات الأخرى التي قد تحققت، وقياسًا عليها يمكن القول إن نبوءاته عن غلبة جماعته أيضًا ستتحقق يوما ما، أما أنتم فلم تتحقق من أنبائكم أي نبوءة، وأن كل أنبائكم تتعلق بالمستقبل ولم

تتحقق. وبالفعل فكل واحد ممن ادعى النبوة من هؤلاء يركز على شيء واحد، وهو قوله إذا آمنتَ بما أقول سوف ترى أن الإسلام يزدهر. ولكن هذا المدعي لا يفكر أنه لا يمكنك أن تؤمن بقوله بدون أن يأتي بدليل على صدقه. ولذلك يقول الله تعالى هنا ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.. أي أن من أكبر القواعد لمعرفة المدعي الصادق أن بعض أنبائه تتعلق بالزمن القريب، وبعضها تتعلق بالزمن البعيد. فمثلا: قد تنبأ المسيح الموعود عليه السلام أن عصا روسيا ستوضع في يده، أو أن جماعته ستصبح غالبة في العالم كله خلال ثلاثة قرون (تذكرة الشهادتين، الخزائن الروحانية المجلد ٢٠ ص ٦٧). وعندما يقرأ العدو هذه الأنباء يعتبرها مجرد ترهات، كيف يمكن لأحد أن يصدق هذا؟ وقد ردّ الله على أمثال هؤلاء بهذه الآية فقال إن محمدًا ليس بخيلا بشأن الغيب. إنه لم يُدْلِ بنبوءة أو اثنتين تتعلقان بعصور بعيدة، بل لقد أدلى بكثير من الأخبار الغيبية الأخرى التي قد تحققت فعلاً، فلم لا تعترفون -بعد أن رأيتم تحققها بأم أعينكم- بأن أنباءه الأخرى ستتحقق كما تحققت الأولى. أتذكر جيدًا أنه كلما جاء المسيحَ الموعود عليه السلام شخص مطالبًا بآية قال له: ماذا انتفعتَ من الآيات السابقة التي قد تحققت حتى أُريك آية أخرى؟ (الملفوظات المجلد الخامس ص ٦٤٣-٦٤٤). وهذا هو الأمر الذي ينبه إليه الله تعالى بقوله ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾.. أي أنكم تستبعدون تحقُّقَ نبوءة ظهور مأمور رباني من قبل الشرق البعيد وازدهار الإسلام على يده، ولكن لو كانت النبوءة هذه ضربًا من الجنون كما زعمتم، فكان الواجب ألا يكون هناك أي دليل آخر على صدقه. وحيث إن هناك أنباء كثيرة أخرى له قد تحققت، فلا بد لكم من الاعتراف أنه ليس بمجنون. ثم إن أخلاقه الحميدة ووقائع حياته السابقة أيضًا دليل آخر على أنه ليس بمجنون.

وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَٰنٍ رَّجِيمٍ ﴿٢٦﴾

شرح الكلمات:

رجيم: رجَمه: رماه بالحجارة؛ قتَله؛ قذَفه؛ لعَنه؛ شتَمه؛ هجَره؛ طرَده. (الأقرب)

التفسير: لقد قدّم الله هنا دليلاً قويًّا لطيفًا يميز الصادق من الكاذب من المدّعين. ولكن هذا الدليل دقيق لا يُفهَم إلا إذا قدَّمه شخص خبير بالنقاش بطريق سليم. فمن معاني الرجيم المطرود، وعليه فقوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ يعني أن القرآن ليس قول الشيطان المطرود.. أي كانت هناك تهمتان يمكن أن يوجههما الكافرون إلى النبي ﷺ: التهمة الأولى أنه مجنون والعياذ بالله، فجاء الرد عليها في الآيات السابقة، وكانت التهمة الثانية أنه شرير وعلى صلة بالشيطان- والعياذ بالله- فردّ الله عليها بقوله ﴿وَمَا هُوَ عَلَى الْغَيْبِ بِضَنِينٍ﴾، إذ متى تيسّرَ علم الغيب للشيطان؟ وكيف يقال عمن تحققت نبوءاته أنه على صلة بالشيطان؟ بل الشيطان مطرود من الحضرة الإلهية. وقد بيّن الله هذا الموضوع في مكان آخر من القرآن إذ قال ﴿إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاءَ الدُّنْيَا بِزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ ۞ وَحِفْظًا مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ مَارِدٍ ۞ لاَ يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى وَيُقْذَفُونَ مِنْ كُلِّ جَانِبٍ ۞ دُحُورًا وَلَهُمْ عَذَابٌ وَاصِبٌ ۞ إِلاَّ مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ فَأَتْبَعَهُ شِهَابٌ ثَاقِبٌ﴾(الصافات:٧-١١). والمراد من قوله ﴿لا يَسَّمَّعُونَ إِلَى الْمَلإِ الأَعْلَى﴾ أن الشياطين لا يقدرون على سماع كلام المقربين عند الله تعالى فأنى لهم أن يسمعوا وحي الله تعالى. وأما قوله تعالى ﴿إِلا مَنْ خَطِفَ الْخَطْفَةَ﴾ فيعني أنه لو خطف أحدهم شيئًا من كلام المقربين عند الله تعالى فيدمَّر. لقد صرح الله هنا أن الشياطين لا يعطوْن علم الغيب. ولو أن المدعين الكاذبين نسبوا إلى أنفسهم شيئا من معرفة الغيب لعاقبهم الله ودمرهم. وحيث إن محمدا رسول الله ليس ببخيل بأنباء الغيب.. أي أنه يخبر عن الأمور الغيبية بكثرة، فكيف يكون على صلة مع الشيطان؟ كلا، بل هذا دليل على أنه مبعوث من عند الله تعالى.

أما قوله تعالى ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ فقد ذكر الله فيه دليلا ثالثًا على صدق نبيه ﷺ. لقد قلتُ من قبل أن الرجيم يعني المطرود، وقد نبه الله الكافرين هنا أن هذا المدعي في ازدهار مطّرد، مع أن مَن كان على صلة مع الشيطان يظل مطرودًا ومهانًا، ولا يكتب له التقدم والازدهار، فكيف يكون محمد كاذبًا؟

وأرى لزامًا أن أذكر هنا أن بعض الناس لا يفهمون هذا الدليل فهمًا سليمًا، فينخدعون ويصعب عليهم التمييز بين مدعٍ صادق وكاذب؛ ذلك أن الناس عادةً ينضمون – ولو بعدد قليل – إلى كل مدّعٍ وإن كان كاذبًا، فيعتبرهم المدعي دليلا على صدقه قائلا: انظروا، لقد كنت وحيدا، وقد صارت لي الآن هذه الجماعة. فمثلاً يقول المدعي "ميان عبد الله التيمابوري": كنت وحيدا، ولكن قد صار عدد أتباعي كذا الآن. ويقول المدعي ميان غلام محمد إن عدد أتباعي قد بلغ كذا وكذا، وهذا دليل على صدقي، ولو كنتُ كاذبًا لما كتب الله لي هذا النجاح. وقد رأيتُ أن أفراد جماعتنا أيضًا يصابون بالقلق أحيانًا عند سماع هذا الكلام. والحق أن هذا الدليل دقيق جدًّا، والاستدلال به خطير كخطورة المرور بالسفينة من بين الصخور، إذ قد ينخدع منه أحد فيدمر إيمانه.

والرد على هذه الشبهة هو أن هذا الدليل لا يكتمل من دون توافر شروط ثلاثة؛ ومن دون توفرها لا يصحّ تقديم هذا الدليل من قبل أي مدعٍ على صدقه. وأول هذه الشروط أن يكون أفراد جماعته على مستوى عال من الطهارة والصلاح، لأن انضمام حفنة من الناس إلى المدعي وتصديقهم لدعواه لا يقوم دليلا على صدقه، بل لا بد لإثبات صدقه من أن يصل أتباعه إلى مستوى عالٍ من الورع والطهارة والصلاح، ليكون هذا دليلاً على أن المؤمنين به قد صاروا على صلة مع الله تعالى. إذ من الممكن أن يصدق الناس أن المرء كان حسن النية وأراد الترقي في الخير، ولكن عقله فسد، فادعى بهذه الدعوى، ولكن كيف يمكن أن يحدث في حياة كل من ينضم إلى هذا الكذاب تغيّرٌ طيب ويسري على قلبه الصلاح والورع؟ فمن أدلة صدق المدعي الصادق أن يرتفع مستوى أتباعه في الصلاح والتقوى وخشية الله والتضحية والإيثار لبني نوع الإنسان، بحيث إن كل من يراهم يقول تلقائيا إذا كان هذا هو مستوى صلاحهم، فما بالك بصلاح مُطاعهم. وأما إذا لم تتوفر هذه العلامة في جماعة فليس هناك دليل يقيني على أنهم ليسوا على صلة مع الشيطان الرجيم.

والمعنى الآخر للشيطان الرجيم هو الشيطان المرجوم أي المطرود الذليل المهان في أعين الناس. وعلامة النبي الصادق أن جماعته تكون معززة بالقوة، أي أن أفرادها

يكونون مزودين بكفاءات التقدم والرقي، بحيث إن كل من يراهم يوقن بأن هؤلاء القوم سيغلبون العالم حتمًا في يوم من الأيام. وذلك كما قال الكافرون لصالح عليه السلام ﴿يَا صَالِحُ قَدْ كُنْتَ فِينَا مَرْجُوًّا قَبْلَ هَذَا﴾(هود:٦٣).. أي يا صالح كنا نعقد عليك آمالا كبيرة، وكنا نرى أنك ستأخذ القوم إلى أوج الرقي والازدهار. لا شك أن هذه الآمال تُعقد على مثل هؤلاء الرجال قبل بعثتهم، ولكن حين تقف معهم جماعة من المؤمنين بعد دعواهم فتشحن عقولهم بنضارة وقلوبهم بهمة بحيث لا يبالون بعدها بأية عوائق. ولكن ليس المراد من علوّ الهمة أحلام اليقظة، كما هو مشهور عن أحد المدعين الذي ادعى أنه سيُعطَى المُلك، فقال له أحد مريديه: ماذا أنال من هذا الملك؟ قال له: لك مُلْكُ البنجاب! بل المراد من علو الهمة أن المدعين الصادقين يتبعون خططًا تجعل العالم يوقن بأن هؤلاء يتخذون بالفعل أسبابا لفتح العالم، ويقومون بمساعٍ معقولة للغلبة على العالم. إذن، فثاني علامات المدعين الصادقين أن جماعتهم تتحلى بالإقدام لا بالرجم، وأعني بالرجم الفرار، لأن من يُرجم يهرب ويفرّ، ولكن جماعة المدعي الصادق لا تفرّ من الميدان، بل يبدو أنها ستبتلع العدو.

والمفهوم الثالث الكامن في كلمة الرجيم هو أن من يُرجَم يختفي هنا وهناك ولا يتصدى لعدوه، ومن أجل ذلك أمر الله المؤمنين بالاستعاذة والدعاء دائمًا حتى ينجيهم من وساوس الخناس، وهو ﴿الَّذِي يُوَسْوِسُ فِي صُدُورِ النَّاسِ ۝ مِنَ الْجِنَّةِ وَالنَّاسِ﴾، أي أنه يلقي الشبهات في قلوب الناس ثم يختفي؛ ومن أجل ذلك قد ذكر الله تعالى الخُنّسَ في هذه السورة. أما جماعة الأنبياء فلا خفاءَ ولا تستّرَ عندهم، بل إنهم يبلغون الناسَ أحكام الله بكل جلاء ووضوح، ويقولون: هل عندكم من اعتراض على هذه التعاليم؟ ولكن أتباع المدعين الكاذبين يفتقرون إلى هذه الشجاعة، ويحاولون دائما ألا يطّلع الناس على تعاليمهم. خُذوا مثلا البهائيين، فإنهم يُخفون مذهبهم دائما، مع أن الشرطي يمشي بين الناس في زيّه الرسمي ولا يختفي، إنما اللص هو الذي يختفي هنا وهناك كي لا يراه أحد. فالذين يُبعَثون من عند الله تعالى لا يُخفون شيئا مما نزل عليهم، بل يعلنون بين الناس أن هذه هي عقائدنا

وهذا ما نؤمن به وهذه أحكام شريعتنا، وإذا كان لديكم أي اعتراض، فأتوا به. ولكن المدعين الكاذبين يخفون مذهبهم وتعاليمهم بطريق أو بآخر دوما. ولذلك يقول الله تعالى ﴿وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾.. أي أن القرآن ليس من الشيطان الرجيم، وإلا لحاول محمد إخفاءه. لقد أمَرْناه صراحة ﴿فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ﴾(الحجر:٩٥)، وقلنا له ﴿بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾(المائدة:٦٨). وما دام محمد لا يخفي عنكم شيئا من وحيه، فكيف يكون وحيه من شيطان رجيم؟ يمكنكم أن تعترضوا على وحيه، وتقولوا عن تعاليمه ما شئتم، وسوف يُجاب على كل اعتراض، وسوف تُفنَّد كل مطاعنكم، حتى يتأكد لكم أن التعاليم الحقيقية إنما هي ما يقدمه محمد ﷺ. وحيث إن الوحي النازل عليه خالٍ مما يستحيل أن يعزى إلى الله تعالى، أو ما يضطر لإخفائه خوفًا من مطاعن الناس، فهذا في حدّ ذاته دليل أن وحيه ليس من قول شيطان رجيم.

الحق أن هذه العلامة هي من أكبر ما يميز بين مدعي النبوة الصادق والكاذب، لأن الكاذب يخفي عادة بعض تعاليمه حتما، أما الصادق فيقول ما يقول جهارا نهارا، ولا يبالي بأي اعتراض. كما أن الجماعات الشيطانية تفتقر إلى الشجاعة والإقدام، ولا تكون عندها من الخطط العَملية ما يرجى به التقدم والازدهار. لا شك أن الله تعالى يهيئ الأسباب غير العادية لازدهار جماعته، ولكن التدابير التي تتخذها هذه الجماعة لها دخل كبير في ازدهارها. إن الله تعالى لا يجعل أتباع نبيه غالبين على العالم بقوله ﴿كُنْ فَيَكُونُ﴾، بل يجعلهم يتخذون أنواع التدابير المادية أيضًا. وكأن التقدير والتدبير كليهما يعملان باستمرار، كما بين الله تعالى ذلك في قوله: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾(آل عمران:٥٥).. أي أن الكافرين اتخذوا التدابير، والله تعالى اتخذ التدابير أيضا، وفي الأخير غلبت التدابير الإلهية على تدابيرهم. وقد تبين من ذلك أن للتدابير المادية دخلاً في نجاح الجماعات الإلهية. لا شك أن زمام التدبير والتقدير كليهما في يد الله تعالى، وأن مشيئته هي التي تُنفَّذ في العالم، إلا أن من أهم واجب الجماعات الإلهية أن تتخذ التدابير لرقيها، وتخطّط لتقدمها المتواصل.

انظروا إلى جماعتنا مثلاً، فإن الله تعالى قد جعل في كل فرد منها قوة الإقدام بحيث يتراءى للجميع أن هذه الجماعة ستبتلع العالم كله في نهاية المطاف. فمرةً كتب محرر جريدة (زميندار) التي تعادي جماعتنا عداء شديدا، فقال: إني مصاب بالذهول برؤية أن الذين لا يأبهون لفلسفة "كانْت" و"هيجل" هم الآخرون ينضمون لجماعة ميرزا غلام أحمد القادياني. (جريدة زميندار، عدد التاسع من اكتوبر ١٩٣٢). والحق أن اعترافه هذا بمنـــزلة إعلان منه أنه يشعر أن هذه الجماعة سوف تتغلب على العالم حتمًا.

ثم إن تعاليم المدعي الصادق لا يكون فيها سرّية ولا خفاء، بل إنه يعرضها على الناس علنًا ويتحدى العالم كله قائلا: إن كان لديكم اعتراض فأتوا به ولسوف أرد عليه. ولكن متى كانت هذه الشجاعة في شيطان رجيم، إنما يسعى أن يختفي عن أعين الناس ويظل مستورا عنهم كالخنّاس.

كما أن جماعة المدعي الصادق تحرز مستوى رفيعا في الصلاح والتقوى، وأنّى لأتباع المدعي الكاذب أن يحرزوا هذا المقام؟

باختصار، إن الشيطان جبان، ولكن المؤمنين يتحلون بالإقدام. الشيطان يدعو إلى الشر والسوء، ولكن المؤمنين يزدادون صلاحا وخيرا. الشيطان لا مبادئ له ولا قواعد، ولكن المؤمنين أمامهم خطة عمل محددة تضمن لهم النجاح. الشيطان يتكلم مختفيا متسترًا، ولكن المؤمنين يتكلمون علنًا. فكيف تقولون أيها الكفار أن الوحي الذي يقدمه محمد رسول الله هو من قول شيطان رجيم؟

إن القرآن يستخدم كلمات وجيزة أحيانًا، ولكنها تنطوي على معانٍ واسعة، وهذه الآية مثال على ذلك، حيث بين الله تعالى في قوله ﴿شَيْطَانٍ رَجِيمٍ﴾ موضوعا واسعا جدا، وأشار به إلى كل تلك الآيات التي تتحدث عن الشيطان الرجيم، وبالتالي دعا الكافرين إلى دراسة كل العادات والخصال الشيطانية المذكورة في القرآن وإلى التفكير في كل واحدة، لأن هذا سيكشف عليهم أن هذا الكلام ليس من شيطان رجيم.

فَأَيْنَ تَذْهَبُونَ ﴿٢٧﴾ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِّلْعَالَمِينَ ﴿٢٨﴾

شرح الكلمات:

ذِكرٌ: الذكر: التلفظُ بالشيء؛ وإحضارُه في الذهن بحيث لا يغيب عنه؛ الصيتُ؛ الشرفُ؛ الكتابُ فيه تفصيل الدين ووضعُ المِلل. والذِكر من القول: الصَلْبُ المتينُ. (الأقرب)

التفسير: يقول الله هنا للكافرين: هل بقي أمامكم مفرّ الآن؟ فلو قلتم إن في شخص هذا الرسول عيبًا، فقد أجبنا عليه بقولنا ﴿وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ﴾.. أي أنه زميلكم الذي يعيش بينكم ليل نهار، ويجالسكم كل وقت، وأنتم شاهدون على أنه لم يكن به مسٌّ من الجنون. ولو قلتم إن الكلام الذي يقدمه لكم ليس من الله تعالى بل هو من الشيطان، فقد أجبنا عليه أيضا مفصلاً، فأين تهربون الآن؟ فليس أمامكم الآن إلا أن تنضموا إلى محمد وتدخلوا في بيعته. ولو فعلتم ذلك دخلتم الجنة، أما إذا كفرتم دخلتم النار.

ثم يقول الله تعالى ﴿إِنْ هُوَ إِلاَّ ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾.. أي أما اعتراضكم على إدلائه بأنباء تتعلق بالمستقبل البعيد، فجوابه أن القرآن ليس لأهل مكة فقط، بل هو أيضًا للذين يأتون بعد ثلاثة عشر قرنًا، وأيضًا الذين سيأتون إلى يوم القيامة. فمثلكم يا أهل مكة، كمثل ضفدع يعيش في البئر فقط، فأنّى لكم أن تعرفوا أن القرآن ليس لكم فقط، ولا للعرب وحدهم، بل للعالم كله، بل للناس أجمعين إلى يوم القيامة، فلذلك لا بد لمحمد رسول الله أن يتحدث عن الأمور المتعلقة بالمستقبل البعيد؟ فسخريتكم بهذه الأنباء دليل على قصور نظركم، إذ لا تدرون أننا جعلنا القرآن هدًى للعالمين كلهم، فلا بد أن يتضمن الأنباء عن الأحداث التي تقع في المستقبل.

لِمَن شَآءَ مِنكُمۡ أَن يَسۡتَقِيمَ ﴿٢٩﴾

التفسير: لقد أخبر الله تعالى هنا الكافرين أن من محاسن القرآن أنه لم ينـــزل هديًا للعصور كلها فحسب، بل إن أحكامه تراعي كل فطرة؛ وشريعته تلبي حاجة كل طبيعة، فصاحب أي فطرة وطبيعة إذا أراد أن يسلك سبيل التقرب إلى الله سيجد فيه هداه بسهولة، وسيجد فيه أسبابا لذلك حسب ضرورته. القرآن يحتوي أحكاما تناسب الجميع منكم، سواء الثري والفقير، والذكر والأنثى، والصغير والكبير، والسيد والعامل، والحاكم والمحكوم، وليس هناك مجال من مجالات الحياة إلا وفيه تعاليم متكاملة، ولا يشقّ العمل بأحكامه على أي فطرة، بل إنه راعى كل أنواع الفطرة والطبائع في كل العصور، لذلك نعلن أن بوسع أيّ من أفراد الجنس البشري أن ينتفع بالقرآن إذا أراد. علمًا أن كلمة ﴿مِنْكُم﴾ ليست موجهة إلى أهل مكة فحسب، بل تخاطب أهل الأرض كلها، وأن كلمة ﴿لِمَنْ شاءَ﴾ تعني لمن شاء من سكان المعمورة، ولذلك فالمراد أن كل إنسان من أي عصر ومن أي طبيعة وفطرة سيجد في القرآن أسباب هداه. يا أهل مكة، لا شك أن في القرآن أمورًا لا تتناسب مع فطرتكم أو عصركم فتروها ضربًا من الجنون، ولكن لا نستطيع أن نضرب عن ذِكرها صفحًا، لأن القرآن ليس لكم فقط، بل هو لكل العصور.

وَمَا تَشَآءُونَ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ رَبُّ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٣٠﴾

التفسير: كنت أظن من قبل أن الواو في قوله تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ﴾ حاليّة، وكنت أفسر هذه الآية مقرونة بالآية السابقة كالآتي: مَن شاء منكم أن يسير على الصراط المستقيم حال كونه تابعًا لمشيئة الله فسوف ينال الهدى. ولكن قد انكشف عليَّ الآن مفهوم آخر لهذه الآية، وأنا أفضّله على المعنى السابق بالنظر إلى ترتيب موضوع هذه الآيات.

وهناك أمر آخر جدير بالتذكر هنا وهو أن الله تعالى قد قال من قبل ﴿إِنْ هُوَ إِلا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾، بينما قال هنا ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾،

وهذا هو الأمر الذي لفت نظري إلى المفهوم الثاني لهذه الآية، وتبين لي أنها تشير إلى مفهوم أوسع مما كنت أرى من قبل، وإليك بيانه:

يأتي على الناس عصران: عصرٌ يكون فيه الهدي متيسرا، سواء توجه إليه الناس وانتفعوا به أم لا؛ وعصر آخر ينمحي فيه الهدي كليةً، ويأتي الانحطاط على الأمة بأسرها من حيث دينها، وفي هذه الحالة من المحال أن يرغب الناس في سلوك الصراط المستقيم، لأن القلوب ترغب في شيء برؤية نموذج، حيث يرى المرء غيره متحليًّا بميزة فيرغب في التحلي بها أيضا، أو يرى غيره مواظبًا على الصلاة فيسعى أن يواظب عليها مثله، أو يرى صاحبه يصوم بالتزام فيرى أن من واجبه أيضًا أن يصوم مثله. فالرغبة في فعل الخيرات لا تتولد إلا إذا كان أمام الإنسان أسوة ونموذج، ولذلك قال الله تعالى ﴿كُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ﴾(التوبة: ١١٩).. أي إذا أردتم الترقي في الخيرات فعليكم بصحبة الصالحين. ولكن، كيف يرغب الناس في فعل الخيرات إذا لم يوجد نموذج ومثال في عصر يكون فيه الدين مصابًا بالضعف والاضمحلال في الأمة كلها؟ كلا، إنهم لن يرغبوا فيها في مثل ذلك العصر، إلا إذا ظهرت مشيئة الله أولاً، أي أن يبعث من عنده أحدًا لإصلاح الناس وينـــزل عليه الهدى من السماء.

إذن، هناك عصران: عصر تكون أسباب الهدى مهيأة فيه من عند الله تعالى لمن أراد أن يرغب في الدين وينال الهدى، أما إذا قصر في ذلك فهذا ذنبه، وعصر آخر لا ينال الناس فيه الهدى إلا أن يهيئ الله لهم الهدى من جديد، أما بدون ذلك فلا يمكن أن تتولد في قلوبهم رغبة صادقة في اتباع الصراط المستقيم، ناهيك أن يسيروا عليه بالفعل. والعلاج الوحيد لأهل هذا العصر هو بعثة مأمور رباني بينهم، وإلا فمن المحال أن يتبع الناس سبيل الهدى.

كانت الآيات السابقة تنبئ عن زمن يُبعث فيه مأمور من عند الله، كما أن الزمن الذي أُدليَ فيه بهذه النبوءة هو الآخر كان زمن المأمور الرباني ﷺ، بتعبير آخر، تنبئ هذه السورة في بدايتها عن قوم كان سيُبعَث فيهم مأمور من عند الله، بينما تتحدث هذه السورة في أواخر آياتها عن قوم كان المأمور الرباني ﷺ موجودا فيهم،

ولذلك قال الله تعالى ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾.. والمعنى أيها المعترضون على محمد رسول الله، تزعمون أنكم لا حاجة بكم إلى الإيمان به، أو المعنى أيها الذين أُخبرتم عن بعثة مأمور رباني في "الأفق المبين"، تزعمون أنكم لستم بحاجة إلى مأمور من الله، لأنكم ستتبعون سبل قرب الله تعالى بأنفسكم، اعلموا أن الهدى قد انمحى واندثر في عصركم كلية. فلستم كقوم يكونون في زمن نبيّ ويكون الهدى ميسرًا لهم، وبوسعهم أن يتبعوه متى شاءوا. تدّعون أنكم ستحرزون الرقيّ بقوتكم بدون اتباع أي مأمور رباني، فاعلموا أنه خيال فاسد باطل تماما. عندما يأتي من عند الله ذكرٌ للعالمين فمن المستحيل أن يزدهر القوم من دون الإيمان به. فإذا كان فرد أو أمة تظن هكذا فإنما هو جهل منها. كلا، بل الحق أنه عندما ينمحي الإيمان من القلوب كلية، فلا ترغب قلوب الناس في الهداية، دعك أن ينالوا الهدى فعلا، إلا إذا أنـــزل الله الهدى من عنده. فاعلموا أن ازدهاركم محال الآن بدون الإيمان بمحمد رسول الله.

في هذا العصر أيضًا نرى مشايخ كبارًا بين المسلمين يقولون: أي حاجة للمسلمين لأي مسيح أو مهدي؟ إن العلماء يقومون بواجب الهدى، وهذا يكفي. والحق أن زعمهم هذا باطل كل البطلان، إذ يقول الله تعالى إن مشيئة رب العالمين هي التي تثور أولاً لينـــزل كلامه إلى الدنيا، وبعدها سيتولد في قلوب الناس الرغبة الصادقة في قرب الله تعالى. أما بدون ذلك فلن تتولد هذه الرغبة أبدا.

باختصار، لقد بين الله تعالى هنا مبدأً هامًا بأنه إذا انمحى الهدى من الدنيا في عصر، وانتشر الضلال في كل الجهات، واختفى نور الله عن أعين الناس، فمن المحال أن يحرز أهل ذلك العصر الرقيَّ إلا من خلال الآيات السماوية وببعثة مأمور من عند الله تعالى. وهذا يعني أن مشيئة الله تظهر أولاً من السماء، وبعدها يرغب الناس في الخير، ولذلك قد جاء قوله تعالى ﴿ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ﴾ مقرونًا بقوله ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلاَّ أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾، ليبين أنه سيأتي على الناس زمان لن تتولد فيه رغبة صادقة للخير في قلوبهم إلا إذا أنزل رب العالمين ذكرًا للعالمين. أما بدون ذلك فلا. ومن غفل عن هذه الحكمة حُرم الهدى.